واذا كان عظماؤنا يرغبون في التقليد كما ترى من ملوامهم فما بالهم لا يقلدون في الامور النافعة فان كبراء الافرنج واخص منهم الامة البريطانية يحرصون على نبالتهم اشد الحرص ومع ذلك تجدهم يعلمون اولادهم تعليماً متقناً ثم يرون في اميالهم ويوافقونهم على رغائبهم سيما اختيار العمل الذي تطيب لهُ نفوسهم وتى اختاروهُ مالوا الى تعلُّم اساليبهِ حتى اذا نالوا الشهادة مؤذنةً بالقانهِ زجوا في بحار العمل فتجدهم لذلك منبثين في كل الاعمال من جندية وبحرية وخدمة حكومة وتجارة وصناعة وزراعة وامثالها فيبدأون باعمالهم صغيرة كانهم ليسوا من ابناء الكبار ولكنهم تعظم فيهم نفوسهم عن الارتضاء بحالهم وينصرفون الى عملهم بملء جهدهم فلا يلبث ذلك العمل ان يكبر باجتهادهم ولا يطول عليهم الزمن حتى يجنوا من ثمراتهِ مجداً طريفاً يزيد على مجدهم التليد ويصبح لهم فخراً وشرفاً . وانت تدري ان العمل شريف لذاتهِ وان من اكبَّ عليهِ لا يجد من وقتهِ فسحةً للتلهي . ويسير عليهِ ان ينفق المال جزافاً لانهُ قضى في اجتنائهِ زهرة العمر وكدَّ الخيل

ر . ن

حب الذات

لا يخفى ان الحب على انواع واولها حب الذات وهو مجموع غرائز ورغبات وشهيات وضعها الله سبحانهُ في الانسان لحكمة ارادها في حفظ وجودهِ وبقاء نوعهِ وربطها فيهِ برباط الشعور باللذة من كل ما يضمن سلامة الحياة ويكفل البقاء وبالالم من كل ما يرجع اليها بالمضرة والاذى

وليس حب الذات في الانسان اكتسابياً او نتيجة تعقل واستدلال وانما هو ميل فطري فيهِ ينشأ مع الحياة ويظهر يوم ظهور الفكر ولذا ترى المرء شديد الحرص على الحياة مولعاً بالبقاء ولو تتابعت عليهِ النوازل وحاقت بهِ الشدائد فانهُ لا يطلب لاجلها انقضاء ولا يروم تسهلة حياتهِ انطفاء . واذا سألت السجين موصوفاً بالحديد في غرفةٍ مظلمةٍ لا يأكل غير ما يسدُّ الرمق ولا يكتسي الا الرث ولا امل لهُ الا الاستمرار على تشقاء هل ترغب في الموت للتخلص من المتاعب فيبرم واجابك انهُ يؤثر الحياة على الموت وليس عليهِ المحتضر والمريض والفقير وكل من فيهِ نسمة حياةٍ ولهذا لا يغرنك ما تسمع من شكوى الشيوخ من تعب الحياة واكدارها فان ما يطلبونهُ بلسانهم من الرغبة في الموت ترتعد لحقيقتهِ قلوبهم وما شكواهم الا لدنو الاجل وقرب مفارقة الدنيا كما قال ابو الطيب

واذا الشيخ قال اف فما من حياة وانما الضعف ملاّ

اما الشكل الثاني من حب الذات فهو حب الراحة ولما كان الجسد غير الروح وغايته غير غايتها الاّ ان حفظ الجسد من شرائط حياة الموجود العاقل وضمت العناية الالهية وسطة مثلى لحفظ الجسد ودفع العاديات عنهُ ليبقى سليمًا في الحياة معينًا العقل

ولاخفاء ان جسم الانسان وجميع دقائقهِ الحية تندثر وتبلى على الدوام لذلك يقتضي هذا الدثور تعويض دائم بواسطة الغذاء ومتى كثر الدثور واحتاج الجسم الى التعويض شعر الانسان بألم خاص هو الجوع والعطش اللذان ينبهانهِ الى طلب التعويض ولصحب هذا الالم الرغبة في الغذاء حتى اذا حصلت الشهية على اكفاء حاجتها انقطع الالم والرغبة عن عملهما برهةً ثم يعودان الى العمل في الاونة التي يحتاج الانسان بها الى الاكل والشرب

على ان هذه الشهوات كما قال فيها ده كارت تكون في اصلها حسنة لا عيب فيها الاّ ان الافراط يصيّرها سيئة . ويستطاع تجنب الافراط بالتهذيب والتربية ويقصد الفيلسوف انها ان سارت سيرًا طبيعيًا معتدلاً كانت قاعدة مفيدة من مثل اذا اقتصر من الاكل والشرب على مايفيد احياء الجسم وتقويتهُ

لقد مرّ بنا الماعًا ذكر اشكال حب الذات التي تتعلق بالحواس وبقي علينا ذكر الاشكال التي تتعلق بالحياة الاجتماعيةِ كحب التملك والشهرة والسلطة والمعرفة فحب التملك فطري في الانسان يؤيد هذا القول وجود هذا الحب في مطلق النوع من بدوي يسرح في القفار ويأوي الكهوف والاكواخ الى حضري يسكن القصور ويلبس الاطالس والقز . وجد على كيفيات تتباين حسب تباين البيئة وحالة المجتمع الاّ انها تابعة بالجملة لحاجات الانسان وضروراتهِ من مثل ان الولد يحب تملك الطابات والكتل لانها من ضروريات العابهِ واسنّ حاجاتها وكذلك ترى الامم العريقة في البداوة تكثر من تموّن الحراب والسهام بين ان الامم الراقية مراقي التمدن تكثر من حشد الفضة والذهب والقرى والقصور واشباه ذلك

وما شأن هذا الميل مع اختلاف كيفياتهِ الاّ كاختلاف كيفيات الاكل لدى الافريقي عن الاوروبي لا بل في اهل بلدٍ عن بلدٍ آخر فما يستطيبهُ قوم قد ينفر منهُ الآخرون على ان شهيّة الاكل واحدة في الانسان في كل مكان وزمان . اما حب الشهرة والميل الى الاعتبار فنزعة طبيعيةٌ في الانسان لا يختلف فيها انسان عن انسانٍ لا ينفعل من المدح او الذم مهما كان حالهُ وشأنهُ حتى ان اللص الذي قضى السنين الطوال محجوبًا سهاةً اذا قوبل بالتشنيع امتعض وتألم وبالمدح ابتهج وابرقت اسرتهُ

على ان هذا الشعور يظهر في الصغر ولهُ شأن هام في تربيتهم وانهُ ليسوءنا جدًّا ان السواد الاعظم من متلقي الكتائب اذا اتمّ الولد واجباتهِ المدرسيَّة لا يكافئونهُ بالمدح تجاه وفائهِ المتلاملة زعمًا منهم ان المدح مدعاة للعجب والاعتداد بالنفس وموجب للكبرياء والتهاون في الدرس ولا يدرون ان في المدح انهاضًا وتحريكًا لحماسهِ وفي الامتناع عنهُ اضعافًا لميل الفطري فيهِ الذي اذا تقوّى شب الولد رجلاً نافعًا مفيدًا كما انهم اذا لم يقم التلميذ بالواجب المدرسي كان قصاصهُ الضرب الشديد بحيث يعيشون فيهِ جرثومة الشهامة وعزة النفس ويدفعون بهِ الى السيادة والجبين . كأني بهم لا يفقهون معنى التربية وان القصد منها انماء القوى العاقلة وتقوية الاميال النافعة . ولا مشاحة ان هذا الحب الفطري اذا رسخت في الخواطر اصولهُ واشتدت في النفوس وطائدهُ تجلت الهمم في اعلى مظاهرها وبدت العزائم في ابهى مفاخرها وثارت في نفوس الرجال نفوسهم الى اعظم الاعمال واجل المآثر . وحسبك ان هنيبال وشتطون وبرابارت ما اقتحموا الممالك ولا خاضوا معامع القتال برباطة جأش وصدق عزيمة تزعزع الجبال الاَّ لترفع اقدارهم ولازدياد اعتبارهم في عيون الناس اجمعين . ولولا هذا الحب ما رأينا نيوتن وديكارت وباستور وهرفي وباكون وابن رشد وابن سينا وغيرهم من الحكماء واساطين العلم وحذاذيذ الشعراء وفطاحل الكتبة يدأبون على البحث والاكتشاف ويحيون الليالي بالمطالعة والدرس والتأليف وما رأيناهم يسعون هذا السعي الاَّ لتطبق شهرتهم الآفاق وتطرب بذكرهم الالسنة والشفاه وتطأطئ لهم الهامات اجلالاً وتكرمةً . ولولا حب الشهرة لم ترفع الانصاب والتماثيل وتنقش الاعمال والاسماء على الصخور والاجر احياء للاسم واخلادًا للشهرة

ولئن كان حب الشهرة مصدرهُ الانانية وغايتهُ الاثرة الاَّ ان نتائجهُ الخيرية عظيمة ومنافعهُ للمجتمع الانساني جليلة لما يبذل الانسان من الجهد في الحصول عليهِ ولما يضحيهِ من المنافع الشخصية في سبيل الوصول اليهِ وقد ارتأى بعض العلماء ان هذا الحب مصدر ما نراهُ في بعض الافاضل من دماثة الخلق ولين الجانب وحسن معاملة الاخرين

ويقرب من هذا النوع جدًّا نوع آخر من الحب يعرف بحب السلطة وهما في الغالب يتحدان معًا ويندفعان كلاهما الى رغبات واحدة واعمال واحدة على ان حب السلطة ضروري لحفظ نظام الكون وتمكين رباط المجتمع الانساني فاذا تخلخلهُ الطمع خرج بهِ عن جادة العدل وذهب بهِ الى التعسف والظلم في الحكم شأنهُ عند الامم البعيدة عن منازل الحضارة الضاربة في البداوة فان سلطة الاب المتجنّي على عائلتهِ لا تقف عند حد . فالولد والزوجة ملك الرجل وعبيدهُ يتصرّف بهم استعبادًا واستغلالاً على ما يشاء ويريد فكم من اب عربيّ زمن الجاهلية

وأد ابنتهُ تخلصاً من اطعامها او خوفاً من وقوع العار عليهِ بسببها وعلى خلاف ذلك ترى الاب في الامم التي استنارت بانوار العلم والعرفان يستعمل السلطة للتربية والتعليم غير متوهمٍ بالقسوة ولا مخوّفٍ بالعنف وتدوم دوم تحجز الولد عن تحصيل موارد الحياة ومتى استقبلوا الشباب وصاروا اكفاء لعمل ذهبت سلطة الوالد وتبدّل خضوع الولد لهُ بالاعتبار

ومن الغريب ان هذا الحب لا تقوى عليهِ السنون ولا تبيدهُ الايام بل يزيدهُ الشيب رسوخاً على عكس حبي الاعتبار والشهرة فقد يضعفان متى بلغ الانسان دور العجز وايام الهرم. اعتبر بما تراهُ في معظم الشيوخ الذين لم يحسنوا بلبان العلم ولا اعتدوا بشكائم فهم متى بلغوا هذا الطور من الحياة تجدهم وقد اخذ الكبر على قوامهم واقعدتهم الايام في زوايا يبوتهم لا يفترون ساعةً عن الاستبداد في عيالهم بضروب من الاحكام ما انزل الله بها من سلطان فيزجرون الاولاد الصغار وينهونهم عن اللعب ويحذرون من الخدم ولا يرتضون عن عمل من اعمالهم ما لم يكونوا قد طبعوهُ منهم ويتخذون من اولادهم الكبار اذا لم يتبعوا آراءهم واعمالوا باوامرهم في كل سكناتهم وحركاتهم

وليس ما يخلي في قلب كل واحدة من الحماة والكنة من العداوة والبغضاء الاَّ نتيجة لازمة عن حب السلطة يظهر ذلك لمن استقرأ حال الزوجة وهي فتاة عزباء في بيت ابيها وكلها آمال ترمي الى الزواج وتسعى بجهدها للحصول عليهِ لتصبح ربة بيت تستقل في ادارته وتتسلط على سائر اعمالهِ الاَّ ان هذا الميل يظهر فيها قبل ان تبلغ الرشد فتدرك معنى الحب الزوجي ومن نظر اليها وهي تلعب مع رفيقاتها رآها تمثّل ذاتها في العابها زوجةً صاحبة بيت وخدم وولد تمثلة السلطة البيتية في جميع ادوارها بتمثيلاً بالغاً غاية الاتقان ويعظم هذا الميل فيها كلما خطت خطوة نحو دور الشباب حتى اذا بلغتهُ عقدت خطبتها على شابٍّ ووجِل الحب فؤادها وصارت ترى في خطيبها ما تراهُ عين المحب في المحبوب عادة من اللطف والكمال وظنت السعادة والهناء موصولين بالزواج قائمين فيهِ

يومئذٍ تسرح في عالم الخيال وآمال الحب تقرّب لها البعيد وتسهل الصعب فتتصور نفسها في بيت خطيبها ولد صارت زوجةً المنزل وصاحبة السلطة المطلقة فيهِ حتى اذا استتبَّ لها الزواج رأت غير ما املت وجرت الرياح ضدَّ ما تمنت. رأت حماتها صاحبة السيادة المطلقة منذ سنين وهي حريصةٌ على سيادتها حرص البخيل على درهمهِ ولا ترضى المشاركة فيها واذا نازعها عليها منازع تدافع عنها دفاع اللبوة عن اشبالها وانكنة تهجم وفيها عزيمة الشباب الصادقة وهمة المغصوب في ارجاع حقهِ المسلوب فيقع البغض بينهما وتشب نار العداوة التي

صارت بين الناس مثلاً لشرعه في معظم العيال ولا دواء ينجع في استئصالها الا التشارك في السلطة وتنازل كل واحدة منهما عما تدعيهُ لنفسها من الحق الشرعي في وهيبات ذلك من نفوس تعشقت السيادة ولذاذات على حب السلطة

اما حب المعرفة فقد قال لوثر عنهُ في كتابه قاموس الفلسفة ما معناهُ ان الرغبة في المعرفة طبيعية في الانسان حتى في القرود وصغار الكلاب خذ كلبك الصغير في الغرفة معك فيضع يدهُ على النافذة ليرى ما يمرّ امامهُ واما الانسان فانت تعلم بما يعملهُ في المواسم الكبرى كبراون ولندن وباريز كيف يصرف اوقاتهُ مستفهماً عن الاخبار الجديدة . وقال جول سيمون في كتاب الواجبات ان هذا الحب واضح في ابسط اعمال الحياة فلو كنا منفردين في قفر بعيد وسمعنا صوتاً او دوياً خارجاً من احدى جهات المكان الذي نحن فيهِ تتوق بكليتنا الى معرفة سبب الصوت الذي سمعناهُ وهكذا اذا مررنا ورأينا جماعة من الناس متجمهرين على شيء لا بدَّ لنا من ان نجيَّ ذلك الموضع لنقف على سبب تجمهرهم وايضاً اذا حدث فجأةً امامنا تغير في شيء من الاشياء وغبنا في معرفة السبب ولا نرتاح ضمائرنا حتى نعرفهُ

وحقيقة هذا القول ظاهرة لمن يتدبر احوال الانسان في سائر ادوار حياتهِ وفي جميع مراتب رقيهِ الاجتماعي من الامم السارحة في القفار الى النازلة في الامصار والقائمة في القصور الفاخرة يراها كلها جمعاء تتوق الى معرفة الاخبار واستطلاع الجديد . اعتبر بما تراهُ من مسرة الاحداث وابتهاجهم اذا نظروا شيئاً جديداً وكيف يكونون كلهم آذان لاستماع القصص والحكايات او ما ترى الولد وهو سائر الى جانب ابيهِ كيف يسأل عن كل شيء لم تقع عيناهُ عليهِ من قبل

والشيء بالشيء يذكر ان معظم الآباء والامهات يزجرون اولادهم اذا هم سألوهم عما يجهلونهُ من الامور وفي ظنهم ان ذلك التحذير من لوازم التربية مخافة ان ينشأ الحدث طفيلياً وهنا الغلط كل الغلط لان في تنبيه هذا الميل النظري يقوى في الحدث حب البحث والاستقراء وارجاع الاسباب الى مسبباتها فينشأ وهو ابن البحث والتدقيق ويدخل ديار العلم فيستفيد ويفيد ولا اخصص بعضاً من الآباء في هذه المؤاخذة بل اوجهها ايضاً الى نفر من معلمي المدارس والكتاتيب

على ان حب المعرفة واللذة التي تعقب عادةً استطلاع المجهول كانتا السبب لحصول العلم وارتقاء الانسان في سلم الحضارة والعمران وهذا الحب يكون عند الامم المتمدنة في اقوى مظاهرهِ وذلك شاهد من انصباب الافرنج لهذا العهد الى اكتساب العلم واكتشاف الحقائق وما ينفقون من الاموال في سبيل معرفة اخبار الامم وحوادثهم